المحور4: **العصر الهرمينوطيقي للعقل.**

تمهيد: العصر الهرمينوطيقي للعقل يشير إلى هيمنة التأويل على العقل الفلسفي المعاصر، حيث التأويل يتلاءم مع روح الفلسفة المعاصرة وما يميزها من منعطفات لغوية ونقدية وتعددية ونسبية وخصوبة في طرح المشكلات والحلول والآراء والتأويلات.

لقد طرحت الهرمينوطيقا الفلسفية المعاصرة ليس فقط إمكانية تفسير النصوص وفهمها، بل أكدت إشكالية الفهم نفسها، كما أكدت أن تأويل النصوص ليس إلا أنموذجا لتأويل الرموز والثقافات والأفعال الإنسانية، وبهذا توسعت الهرمينوطيقا لدراسة عمليات الفهم في الرموز والنصوص والأفعال والثقافات. وإذا كان شلايرماخر ودلتاي هما المؤسسان للهرمينوطيقا الفلسفية، فقد عرفت مع هيدغر وغادامير وبول ريكور وهابرماس أوجهها البارزة.

أ-هيدغر مارتن : (1889-1976)

يمكن رد كل القضايا الفلسفية والمجالات التي بحث فيها هيدغر إلى البحث في الوجود، فمفهوم الوجود يشكل الأساس الذي تنبني عليه فلسفته. والمجال الذي يشمل كل قضاياها لكن الوجود بأي معنى ؟

خصائص الوجود: لقد رفض هيدغر المعنى الذي تعطيه الفلسفات المثالية ابتداء من أفلاطون وأرسطو إلى كانط وهيغل وغيرهم، فكل هذه الفلسفات قد اهتمت بالوجود المطلق وتجاهلت الموجود الذي يسأل عن الوجود، حيث " أثناء بداية تفتح الوجود في الفكر اليوناني، تم التفكير جيدا في الوجود، ولكن لم يتم التفكير في وجوده كما هو، باعتباره "هناك"" ولهذا فإن هيدجر يطرح السؤال الذي يعتبره منسيا في تلك الفلسفات: " ما هي الذات هنا؟ " حيث تسأل الذات عن ذاتها ووضعيتها وظروفها، وتنشغل بهمها واهتماماتها، ومشروعها في الوجود الأصيل لا المبتذل، ومع أن الوجود فردي ومتعين وواقعي، فإن النظرة إلى وجوده تختلف من فرد إلى آخر، الأمر الذي لا يمكن تحديده، ولكن هيدجر حاول أن يبحث عن المواصفات العامة لهذا الوجود الفردي أو " الدازاين " وهي:

- أنه وجود ملقى به في العالم، لذلك فهو وجود ينطوي على القلق والتوتر والمخاطرة والتساؤل عن معنى وجوده في هذا العالم.
- أنه وجود من أجل الموت، لأن العدم يسري في صلب الوجود وليس خارجا عنه، حيث " الإنسان في تكوينه هو وجود للموت (Sun-sum-Tude) في جوهره، وإذا لم تدرك الآنية ذلك لم تدرك نفسها، والتفسير الوجودي للواقع الإنساني، باعتباره وجودا للموت، هو وحده الذي يسمح للآنية ببلوغ الوجود الأصيل.
- أنه يمكن أن يكون وجودا زائفا مبتذلا أو وجودا أصيلا، فالوجود الزائف هو الوجود الذي يجعل الآنية تعيش مع الآنيات الأخرى حياة مبتذلة، و" ينزل بهذا الوجود إلى حياة زائفة مبتذلة يومية، لأنها حياة متشابهة، ذلك أن الآنية التي تعيش بين آنيات، تعيش على غرار هذه الآنيات ولا تعيش عيشتها الذاتية."

أما الوجود الأصيل فهو وجود حر، و" يتخذ صورا متعددة، لعل أكثرها شيوعا صورة " أقيم " habito و" أختار" diligo وكذلك صور الشروع في، والتنفيذ والتعلم والتساؤل، والنظر في، والسماح، واتخاذ القرار..إلخ

علاقة الوجود بالتأويل: يمثل التأويل في فلسفة هيدغر تحولاً جذرياً في فهم الوجود وتفسيره، حيث انتقل من البحث عن منهجية لتفسير النصوص إلى سؤال أنطولوجي أساسي حول طبيعة الفهم ذاته، وهو كيف تفهم الذات نفسها وتفسر وضعيتها؟

إن الدازاين هو الوجود الإنساني الفردي المتعين الذي يتميز بقدرته على فهم الوجود، فوجوده ليس مجرد موضوع بين الموضوعات، بل هو الكائن الذي يسأل عن معنى كينونته، والدازاين في محاولته لفهم ذاته فإنه لا يفهمها فهما مباشرا، بل من خلال واسطة وهي اللغة، فاللغة هي الواسطة التي تتوسط بين الذات وذاتها، وبين الذات والعالم، فلا يتم الفهم إلا من خلال اللغة،

واللغة الأقرب إلى التعبير عن وجود الكائن الإنساني هي اللغة الشعرية وليس لغة العلم أو لغة الأشياء، كما أن الفهم هنا ليس مجرد نمط معرفي بل طريقة في الوجود إنه تعبير على طريقة وجود الكائن ووضعيته، ولذلك لكل فهم بنيته المسبقة التي تتمثل في أحكامه المسبقة، فالفهم يتحرك دائما ضمن سياق مسبق من التوقعات والأحكام المسبقة الناتجة عن علاقة انتماء الكائن الإنساني بتراثه وتقاليده ومجتمعه، كما أن الفهم تاريخي، أي متعلق بالزمن التاريخي ومحدد بظروفه وملابساته وثقافته، فالفهم يحمل داخله دائما تراثا تاريخيا، والذات تفهم انطلاقا من توقعاتها للمستقبل وبناء على تراثها الماضي.

تأثيره اللاحق: بعتبر هيدغر مؤسسا للهرمينوطيقا الأنطولوجية تلك التي تهتم بفهم الكائن لنمط وجوده وتساؤله عن معناه وتفسيره لوضعه وانشغاله، ويعتبر أول من حول الهرمينوطيقا من تأويل النصوص إلى تأويل طريقة وجود الكائن الإنساني، وكان له تأثير واسع على الفلسفة المعاصرة، لاسيما على غادامير الذي أخذ بالهرمينوطيقا الأنطولوجية، وكذلك بول ريكور الذي أدرج الهرمينوطيقا الأنطولوجية ضمن ما يسميه بالهرمينوطيقا ذات المنعطف الطويل، حيث لا يفهم الإنسان ذاته إلا من خلال تأويل الرموز والنصوص والثقافات والأفعال الإنسانية.

ب-غادمير هانز جورج: (1900- 2002)

الهرمينوطيقا عند غادامير هي تأويل للتجربة الإنسانية في كل مظاهرها اللغوية والفنية والتاريخية، وهي بالنسبة له تختلف عن التجربة العلمية التي تختص في دراسة الأشياء أو بالأحرى الظواهر الطبيعية، لذلك فإن نمط التفكير العلمي غير قابل لدراسة التجربة الإنسانية التي تتميز بخصوصياتها الفردية ودقتها ولطافتها، وهي أقرب إلى التجربة الفنية منها إلى وضع الأشياء والظواهر الطبيعية، كما أنها تجربة لغوية وتاريخية، وهذا يعني أن أبعاد التجربة الإنسانية اللغوية والتاريخية والفنية متداخلة ويجري التعبير عنها من خلال النصوص والرموز.

أ- **التجربة الفنية كأنموذج**:

إن مهمة الهرمينوطيقا أو التأويلية هي فهم الخبرة الفنية كتجربة إنسانية، وبالتالي فهي تتحدد عند غادامير بخصائص التجربة الإنسانية التي تعبر عن نفسها في شكل رموز أو آثار أو نصوص، ومهمة المؤول هي فهم الآثار الفنية وتأويلها مثلما نؤول أي نص أو تعبير آخر.

لا تعتبر الخبرة الفنية أو الجمالية عند غادامير " نوعا من أنواع الخبرة، بل هي تمثل ماهية الخبرة في ذاتها" و بالتالي تكتسي طابعا كليا، ولتمييز هذه الخبرة كثيرا ما يكرر غادامير التمييز الأساسي الذي يقيمه العالم هيلهولتز بين المنطق الاستقرائي في العلوم الطبيعية والاستقراء الفني في العلوم الإنسانية، فإذا كانت العلوم الطبيعية تخضع للاستقراء العلمي التجريبي والمفاهيم العلمية المرتبطة به، فإن العلوم الإنسانية تخضع لنوع من الاستقراء هو أقرب إلى الفن، حيث فهمها يتطلب من المؤول الدقة واللطافة والإحساس المرهف، وهذا يعني أن التجربة الفنية تطبع التجربة الإنسانية بطابعها الخاص. لكن لا يرى غادامير هذا التمييز كافيا، ويريد أن يفصل التجربة الإنسانية والتجربة الفنية التي تنطوي تحتها عن المنهج العلمي، بحيث لا يمكن مقاربتها أو اختزالها في التجربة العلمية والمنهج العلمي المرتبط بها.

يجب إدراك أن التجربة الفنية عند غادامير هي تجربة تاريخية، وبالتالي فهي تتغير في الزمن، وهذا لا يؤدي إلى اختلاف دلالاتها اللاحقة عن دلالتها الأصلية فحسب، وبالتالي اغترابها عنا، بل يعني أنها لا تحمل أي دلالة مطلقة، فهي تحمل في كل مرة عالمها الخاص المرتبط بسياقها التاريخي، وتعبر عن حقيقة موضوعية، بحيث أن الأثر الفني " ينتصب في ذاته، وبانتصابه في ذاته، فإنه لا ينتمي إلى عالمه فقط، وإنما عالمه حاضر فيه، إن العمل الفني يكشف عالمه الخاص." وبهذا الصدد يميل غادامير إلى رفض إمكانية إعادة إنتاج العمل الفني في ذهن أو نفسية القارئ التي يدعيها شلايرماخر، فهي استعادة في الخيال، ولا يمكن أن تعيد حقيقة العمل الفني كماهي، في ظروفها وأشخاصها وأغراضها الدفينة، وفي المقابل يقبل غادامير باحترام حقيقة الفن عندما يضفي عليها هيغل تصوره التاريخي، ومهمة الهرمينوطيقا هي فهم التجربة

الفنية وفق تجربتنا في الحاضر، وربطها بتراثنا وقيمنا وآفاق انتظارنا للمعنى، وبالتالي تجاوز اغترابها الذي ينشأ عن بعد المسافة الزمنية والتاريخية.
تخضع التجربة الفنية باعتبارها تجربة إنسانية إلى جدل التملك والتماسف appropriation et distanciation، وهذا يعني بالنسبة لغادامير تناولها أولا انطلاقا من علاقة الانتماء، أي انطلاقا من الوعي المسبق وما يحمله من تراث وأحكام مسبقة وسلطات وفعالية للتاريخ، وهذا ما يسميه الفهم الأنطولوجي. ويتجه التأويل في خطوة تالية إلى أخذ مسافة من علاقة الانتماء والنظر إلى التجربة الفنية كبنية مستقلة، كشيء من الأشياء، وهذا ما يدل عليه مفهوم التماسف عند غادامير، ويعبر عنه في قراءة النص بـ" شيء النص " أو "عالم النص ". غادامير يستخدم مفهوم اللعب للامساك بطبيعة العمل الفني، فالعمل الفني له بنية خاصة وعالم خاص يتمثل في أنه لعبة بمعنى الكلمة، واللعبة رغم أنها تحتاج إلى لاعبين وتعرض على جمهور، لكنها تبقى ذات مفهوم مستقل بما يميزها من قواعد وعناصر وطريقة عمل تجذب لاعبيها وجمهورها إليها وتفرض عليهم دلالتها ونمط وجودها. إن المسرحية لعبة لها قواعدها وطابعها الخاص بغض النظر على علاقتها بالجمهور أو الكاتب الذي كتبها. وفي خطوة ثالثة يؤدي جدل الفهم الأنطولوجي والفهم الموضوعي للعمل الفني من خلال الحوار والنقاش إلى انصهار أفق القارئ مع أفق التجربة الفنية ويحصل فهم تطبيقي توافقي في الحاضر.
ب- **التجربة اللغوية:** اللغة ليست مجرد أداة اتصال، بل هي الوسط الذي يحدث فيه الفهم والتجربة الإنسانية، لأن " الكون الذي يمكن أن يُفهم هو لغة " الوجود نفسه يتجلى من خلال اللغة، وبما أن اللغة تسكن الوجود، فإن فهم الوجود يمر عير اللغة، الأمر الذي يستدعي الحوار، حوار مع النصوص، و التراث والأشخاص... واللغة عندغادامير ليست مجرد نظام من العلامات أو الرموز بل هي حدث، وهذا يعني أنها ليست منغلقة على نفسها في بنية منظمة، بل تحمل اللغة أكثر مما يريد لها كاتبها إنها لا تحمل قصد المؤلف، أو المعنى الموضوعي للنصوص فحسب، بل هي منفتحة دلاليا وتحمل تاريخا من المعاني تتجاوز قصد المؤلف، إنها تجربة تاريخية أيضا.
ت- التجربة التاريخية: تختلف التجربة التاريخية عند غادامير على علم التاريخ الذي يقصي تدخل الذات في التاريخ، فالتجربة التاريخية تدلناعلى أننا جزء من التاريخ، وأن هذا التاريخ يؤثر في فهمنا، ولا يجب النظر إليه من الخارج، كما ننظر لظاهرة طبيعية، لأننا منغمسون فيه، وبالتالي فالفهم الإنساني فهم تاريخي يحمل تجربته التاريخية المتمثلة في أحكامه المسبقة وتراثه وثقافته التي كونته في الزمن.
تتضمن التجربة التاريخية إذن الوعي بالتاريخ الفعال وتأثيره على فهمنا، ففي تأويل أي نص يتدخل التاريخ بوصفه جزء من علاقة انتمائنا وتراثنا، وبالتالي يؤثر على أحكامنا على النص، فنحن لا نفهم من موقع محايد، بل كوارثين لتقاليد حية. وإذا كانت المسافة الزمنية التي نتخذها من علاقة انتمائنا هدفها التركيز على أبعاد النص، فهذا ليس تخطي للتاريخ،لأن فهم النص معناه وضعه في سياقه التاريخي، فلكل نص أيضا تاريخه الخاص، كما أن عملية انصهار أفق القارئ وأفق النص ليس تخطيا للتاريخية بل تفاعلا خلاقا بينهما.